عن كتاب «أصداء السيرة الذاتية» لمحفوظ:

قوى الرقابة منعت نجيب محفوظ من كتابة سيرته الذاتية!

د. هيثم سرحان*

■ كان من نتائج هيمنة النزعة التاريخية على مشاغل الأدب واللغة والفلسفة والمعارف في القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين أنْ ساد موقفٌ نقديٌ يرى أنّ هناك ترابطاً وثيقاً بين السيرة الذاتية والتاريخ. وقد تشكّل هذا الموقف بعد دراسة سير العظماء الكبرى، وقد رأت هذه الدراسة أنّ السيرَ تهتمُّ بتسجيل الأعمال والأحداث الكبرى والوقائع المهمة في حياة الأمم والشخصيات الخالدة. بيد أنّ هذا الموقف لم يصمد طويلاً فقد ذهب كولنغوود Col-lingwood إلى أنّ السيرةَ ليست جزءاً من التّاريخ، لافتقادها قواعد التاريخ الحقيقية «فحدود السيرة هي الأحداثُ البيولوجية الواقعة بين ولادة شخص وموته، من طفولة ونضج وغيرها، وهي صورةٌ للوجود الحيّواني الجسماني، وقد يرتبطُ بها كثيرٌ من العواطف الإنسانية، ولكنّ هذا كله ليس تاريخاً».

ونتيجة ذلك قام توينبي Toynbee بإخراج كثير من السير الذاتية من كتب التاريخ، فاعترافات القدّيس اوغسطين القائمة على الإقرار والاعتراف بالخطايا، وسيرة جان جاك روسو «الاعترافات» التي تدافع عن الذات في محاولة لتقويم الانتهاكات التي مورست ضدها، وحياة الملكة فكتوريا نصوصٌ تشتبكُ بالتاريخ؛ لأنها تدور حول أناسٍ لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعية، ولأنّ حيوات هؤلاء الناس مهمةٌ في نظر الآخرين، نظراً لأدوارهم وآثارهم في التاريخ فقد تمّ عدُّ سيرهم سيراً تاريخية. فالقدّيس اوغسطين له أثرٌ عميقٌ في الكنيسة المسيحية، وروسو خلّد أفكاراً أسهمت بشكل فاعل وقويٍّ في نقل العالم إلى مرحلة الحداثة.

وهذا يعني أنّ السيرةَ الذاتية تنتمي للأدب جنساً وتخييلاً سواء أكانت تخييلاً فلسفياً أم دينياً أم سياسياً أم تشكيلياً وسواء أتناولت مرحلة زمنية معينة أم مسيرة زمنية طويلة، فنص «التأملات» لماركوس أوريليوس يتضمن وصف القيم والفضائل التي اكتسبها من الآخرين، ونص دانتي «الحياة الجديدة» يتناول مرحلة إعجاب دانتي ببياترس وتأثره به، ونص «الاعتبار» لأسامة بن منقذ يتضمن وصفَ معاركه التي شارك فيها في الجيش الإسلامي ضد الصليبيين علاوة على شهاداته المتعلقة بالحرب ومغامراته في الصيد والقنص، ونص «هو ذا الإنسان» لنيتشة يتناول مرحلة تكوّن أسئلة نيتشة الفلسفية، ونص ديكارت «خطاب في النهج» يتضمن بحثاً في مسيرة المنهج الديكارتي، ونص سارتر «الكلمات» يسردُ السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حياته، ، ونص رولان بارت «رولان بارت بقلمه» هو سرد سيريٌ، ونص كلود ليفي شتراوس «المدارات الحزينة» يكشف عن إحساس شتراوس بعامل الزمن في وصف رحلاته العديدة، وأعمال فان كوخ «لوحات الأحذية، ولوحة آكلي البطاطا» تعرض تأويلاً لحياة الفلاحين وأعمال الفلاحة المتسمة بالقسوة والخشونة، ونص «الأيام» لطه حسين يستحضر مسيرة طه حسين وذكريات طفولته، ونص «خارج المكان» لإدوارد سعيد يتضمّنُ إحساس سعيد بالفقد والغياب وحنينه للأمكنة الأولى، ونص بول ريكور «بعد طول تأمّل» يعرض سيرة ريكور وتحولاته الفلسفية.

وعندما يتعلّقُ الأمرُ بكاتب بحجمِ نجيب محفوظ وقامته الأدبية فإنه لا بدّ من التّساؤل: هل كتب نجيب محفوظ سيرته الذاتية؟ إذا كان الجواب «نعم» فأين هي سيرته الذاتية؟ وإذا كان الجواب «لا» فما هي أسباب عدم كتابة محفوظ سيرته الذاتية الكاملة؟ وما موقع كتاب «أصداء السيرة الذاتية» من السيرة الذاتية؟ ما الجنس الذي ينتمي إليه؟ وما علاقة هذا الجنس بالسيرة الذاتية؟

لقد عرّف فيليب لوجون السيرةَ الذاتيةَ بأنها «الرواية النثرية التي يروي فيها شخصٌ ما قصةَ حياته بعد مضي فترة من الزمن، مُسلّطاً الضوءَ على حياته الشخصية، وخاصة على تكوين شخصيته». وبناء على توصيف فيليب لوجون فإنّ نجيب محفوظ لم يكتب سيرته الذاتية لتكون نصاً موازياً لنصوصه الروائية. ولعل المسوّغات التي أدلى بها نجيب محفوظ ليست مقنعةً وغيرُ كافية لتفسير عدم كتابته سيرته الذاتية. وحسب جمال الغيطاني الذي لازم محفوظ من بدايات الستينيات فإنّ نجيب محفوظ لم يفكرْ في كتابة سيرته الذاتية؛ لأنه كان يتذرّع بكونه شخصاً عادياً لا يحوز تجربةً مميزة ثقافياً. لكنّ نجيب محفوظ كشف في حواره مع صبري حافظ المنشور في مجلة الآداب البيروتية عن أسباب أخرى تتعلّق بعدم كتابة سيرته الذاتية. فقد أشار محفوظ إلى قوى الرقابة الصارمة التي تفرضها عليه المؤسسة الثقافية، وهنا يعلن محفوظ قلقه وضجره من المفاهيم الضاغطة التي تحول دون كتابة السيرة التي تسعى إلى تأويل الذات وتنصيصها ورصد حركتها في المجالين الثقافي والاجتماعي. ونظراً لما سيؤديه هذا العمل من مكاشفات كاملة تتضمّنُ مواقفَ متباينةً فإنّ محفوظاً آثر عدم كتابة سيرته خشيةً من قوى الرّقابة الاجتماعية، في المقام الأول، التي كانت ترى في فعل الكتابة عن الأشخاص تشهيراً بسلوكياتهم وفضحاً لمواقفهم وصفاتهم. خاصةً إذا ما علمنا أنّ أسرةَ نجيب محفوظ تمتاز بكونها أُسرةً من المُعمَّرين الذين كانوا يعايشون ولا زالوا أحداث سيرة محفوظ الذاتية الأمر الذي يُعقّدُ مشروع كتابة السيرة. إضافة لذلك فقد أشار محفوظ في هذا الحوار إلى أنه كان يفتقرُ إلى المذكرات اليومية التي تتناول الأحداث والمواقف والتفاصيل التي يعيشها المرء يومياً.

أما الرقابة الذاتية فرغم أنّ نجيب محفوظ قد تدرّب جيداً على ترويضها والإفلات منها في معظم أعماله الروائية إلا أنه لم يستطع أنْ يتخلّصَ من فكرة الآخر الذي يشاطره السيرة؛ لأنّ الذات ليست مستقلة عن الآخرين ومن ثَمّ فإنه ليس من السهل كتابةُ سيرة ذاتية دون التعرّض للآخرين ومسّ خصوصياتهم و فضح أسرارهم وكشف سرائرهم.

لذلك ورغم قسم نجيب محفوظ الإبداعية إلا أنه ظل يشكو من الرقابة ومساحة الحرية المتاحة وهو يعتقد أنّهما يمثّلان شرطاً إبداعياً للكتابة. يقول محفوظ: «إنّ الفنان يجد صعوبةً في التعبير عن نفسه خاصةً لموقف الدولة منه، وهذا وضع عامّ في العالم العربي، حيث يستحيل فصل عمل الأديب عن الدولة إطلاقاً، وصوت الأديب صوت لا بدّ أنْ يهزّ الدولة بالرضى أو السخط... وإذا تجاهلت الدولة صوت الأديب؛ فإنّ الدولة تكون هي الخاسرة، لأنّ صوت الأديب صوتٌ كاشفٌ عن الحقيقة، وإذا كانت الدولة تريدُ أنْ تعرفَ واقعها ومستقبلها فالأديبُ يعرفُ ويُعطي ما لا تستطيعُ أنْ تعرفه جميعُ أجهزة المخابرات، بينما إذا كتمت الدولة هذا الصوت فلن يعود عليها إلا بالخسارة..». لا يتضمّنُ كلام محفوظ تحديداً لعلاقة الأديب بالدولة فحسب وإنما ينطوي على إدانة قاسية للدولة التي تغتال مواقف الأدباء وتصادر خطاباتهم. وفي هذا المقام يبدو محفوظ ضائقاً بمساحة الحرية المتاحة للكتابة وهو يرى أنّ هذه المساحة لا تُمنحُ منحاً وإنما هي استحقاق طبيعيٌ وشرط الإبداع الأول، لذلك لا يتورّع محفوظ عن نعت الدولة التي تصادر الحريات بالجهل. يقول محفوظ: «حرية الرأي شيءٌ ضروريٌ للأديب والصديق والعدو، والعاقل، والحكيم، ولا يخشى من هذه الحرية إلا واحدٌ فقط هو غير الحكيم...».

أصداء السيرة الذاتية: دلالة العنوان وإشكالية التجنيس

يُحيل عنوان كتاب نجيب محفوظ «أصداء السيرة الذاتية» على الصّدى وهو دالٌّ لساني يتضمّنُ ثلاثة مستويات دلالية:

× الأول: الصَّدى – المادة السمعية الناجمة عن ارتداد الصوت. ويستوجبُ الارتداد مفهوم المطابقة والمماثلة بين الصوت والصدى، فقد ورد في لسان العرب أنّ الصدى « ما يجيئك من صوتِ الجبل ونحوه بمثل صوتك».

× الثاني: الصدى – شدّة العطش. وفي هذا المستوى يظهرُ عنصر الماء الذي يعادل الحياة فالصدى هو الظمأ والماء هو الارتواء.

× الثالث: الصدى – جسد الإنسان بعد موته. ويجسدُ هذا المستوى مدلول الموت الناجم عن غياب الروح وفنائها.

ينشطر دالُ الصدى، في أصداء السيرة الذاتية، إلى ثلاث علامات هي: ارتداد الصوت، والظمأ، والموت. وسوف تتعايش هذه المدلولات في النصّ لإنتاج تجاوب الأصداء Echolalia، أي أنْ تُرْجِعَ إحدى العلامات اللغوية صدى علامة أخرى، ثمّ تُرْجِعُ علامةٌ ثالثةٌ صداها، دون أن يكون ثمّة عاملٌ ثابتٌ يُحدد رجع الصّدى سوى العلاقات فيما بينها.

وستقوم هذه العلامات بإنتاج دلالة العنوان وتفسيرها. وبعبارة أخرى فإنّ نجيب محفوظ يحاول الإفلات من شباك السيرة الذاتية وأصواتها السردية مُكتفياً بأصدائها التي تكشف عن كتابة الذات لنفسها وحوارها مع أسرارها. وهنا ينبغي الإشارة إلى أنّ نصوص نجيب محفوظ في «أصداء السيرة الذاتية» ليست إلا شذرات هي أقرب إلى الحوار الباطني الكاشف عن هواجس الذات الصوفية.

نجيب محفوظ

النسيان والتّذكّر

تعتمدُ كتابة السيرة الذاتية على القدرة على التذكر واستعادة الأحداث ورصد التفاصيل المودعة في الذاكرة التي تعمل على استعادة هذه المواد ونفث الروح فيها من أجل مقاومة الزمن ومجابهة النسيان الذي يهدد الذاكرة.

لكنّ نجيب محفوظ كتب أصداء سيرته وهو يواجه عدواً فاتكاً هو النسيان الذي يداهم المرء في شيخوخته. فقد كتب أصداء سيرته بعد سن الثمانين وهو يقاسي جراء فقدانه ذكرياته وسرديات عمره المختلفة. ولعلّ قارئ أصداء السيرة الذاتية يكتشف بوضوح أنّ نجيب محفوظ يعاني من شعور بالفقد الناجم عن وعيه بهويته وهو وعيٌ لا يكفُّ عن الحضور كأنّ نجيب محفوظ يجبر نفسه، في عملية أشبه بالمخاض، على بعث هويته من جديد وخلق حياته التي انسربت بمرور السنوات، مما يعني أنّ محفوظاً كتب «الأصداء» وهو يفتقر إلى المكوّن الأساسي وهو التذكر لذلك فإنّ عمله سيكون شاقاً؛ إذ انّ أفعال التذكر التي أنجزها محفوظ هي عملية استعادة الهوية السردية المفقودة وان نصّ «أصداء السيرة الذاتية» هو محاولة اكتشاف الذات والتعرّف إليها من خلال تأويلها بالكتابة وهي ممارسة لا تقلُّ صعوبةً عن التذكر.

ولا يتوانى محفوظ عن الاعتراف بالنسيان إذ يصف ذاكرته بـ«ذاكرة عجوز»، ويشبه النسيان بالعدم فيقول: «يا له من نسيان كالعدم بل هو العدم نفسه». ويستحضر عبر مونولوج داخلي قول صديقه الحكيم «قوّةُ الذاكرة تنجلي في التذكّر كما تنجلي في النسيان» في إشارة واضحة إلى عجزه عن التذكر.

وأولُ ما يستحضره محفوظ أصداء صدى ثورة 1919 ضد البريطانيين قبل بلوغه السبعة أعوام. وإذا كانت الثورة هي الصوت الأول في ذاكرة الطفل نجيب محفوظ فإنّ أصداءها ستظل تلاحقه تعبيراً عن إحساسه بالتلازم بين الحياة والثورة، لذلك كان أنْ فرح عندما اكتشف أنّ مدرسته مغلقة جراء اندلاع مظاهرات ضد البريطانيين. فالثورة، عند نجيب محفوظ، هي التعبير الحقيقي عن الحياة في حين أنّه كان يرى في المدرسة سجناً لأنها لا تلتفت للحياة وقضاياها الشائكة. بيد أنّ حنينه للثورة لم يمنعه من التحفّظ على رجالاتها الذين كانوا يُعيدون إنتاج الفساد والظلم بعد نجاح الثورة.

إنّ جانب أهمية أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ كامنٌ في قدرتها على الكشف عن تنوّع ذات صاحبها، فالذات المحفوظية ليست ثابتةً وواحدة وإنما متعددة ومتحركة وتبرز من خلال عدة مستويات نصية مثل: الحكايات، والشهادات، والآلام، والتداعيات، والخسارات، والنوازع، والمخاوف، والهلوسات، والخواطر، والرغبات المتوهجة، والتّداعيات، والكوابيس. وفي هذا المستوى فإنّ أصداء السيرة تصبح «ترجمة النفس» كما عبر ابن سينا، إذ يواجه محفوظ اختباراً كبيراً في مكاشفة ذاته والتعرّف إليها عبر مواجهة سردية تستهدفُ الذات وتجعلها في مواجهة الكتابة التي تتحولُ إلى رقيب يتربّصُ بالذات وهي متلبّسةٌ بالتذكر والبوح.

لكنّ الذات لا تذعن لرقابة الكتابة وسلطانها بسهولة إذ تقوم بمراوغتها والإفلات من شباكها؛ خوفاً من الإدلاء بشهادة كاملة. وفي هذه اللحظة تنقسم الذات على نفسها لتصبح ذاتين؛ ذاتاً كاتبةً، وذاتاً مكتوبةً حيث تقوم الذات المكتوبة باستدراج الذات الكاتبة في حين تقوم الذات الكاتبة بتأويل الذات المكتوبة من خلال تقنيات الحذف، والتمويه، والاختصار، والمراوغة، والانتقاء، والتشذير، وهي تدلُّ على قدرة الذات المكتوبة على خداع الذات الكاتبة وتضليلها.

مواجهة الموت

ويبرز الموت جلياً في أصداء السيرة الذاتية وكان محفوظ واعياً به مدركاً لسلطانه وفي هذا السياق تحضر الجنازة في أصداء السيرة الذاتية حضوراً واضحاً فقد كان محفوظ حريصاً على المشاركة في جنائز أصحابه ومعارفه الذين ينتمون، كما يعبر محفوظ، إلى «العهد القديم» وغالباً ما تكون الجنازة في أحد الشوارع أو الأحياء القديمة التي شهدت تجربةً مشتركة بين محفوظ وبين صاحب الجنازة. ليس هذا فحسب بل إنّ محفوظاً كان يستحضر جنازته من خلال ميتات الآخرين الذين عايشوا طفولته وصباه وشبابه بل إنه كان قادرا على رؤية جنازته وتخيلها ففي نص «همسة عند الفجر» يقول محفوظ: «في مرحلة حاسمة من العمر عندما تسنّم بي الحبّ ذروة الحيرة والشوق همس في أذني صوت عند الفجر:

ـ هنيئاً لك فقد حمّ الوداع.

وأغمضت عينيّ من التأثر، فرأيت جنازتي تسير وأنا في مقدمها أسيرُ حاملاً كأساً كبيرةً مترعةً برحيق الحياة».

لقد كتب محفوظ أصداء السيرة الذاتية تحت وطأة الإحساس بالموت كأنّ فعل كتابة السيرة الذاتية «كتابة الذات» فعلُ مواجهة وتحد للموت.

وقد أثبت محفوظ مشاعره بعد تعرضه للطعن ومحاولة قتله، ويمثل نصُّ «عتاب» سيرةً مقتول ناجٍ من الموت وهو يدافع عن حقه في الحياة من خلال عتابها؛ لأنها لم تكترث له ولم توفر له حصانة من الاغتيال. يقول محفوظ:

«همت على وجهي حاملاً طعنة الغدر بين أضلعي». إنّ محفوظ مدركٌ أنّ سبب تعرضه للطعن ناجمٌ عن صدقه ووعيه الملتزم تجاه الحياة. وهنا يستعين محفوظ بـ«صديقه الحكيم» الذي يمثّلُ صوتاً غيبياً يقول لمحفوظ «لست أول من كابد الهجران».

فسألته: أليس للشيخوخة مقام؟

فقال: غرٌّ من يعشق قصةً مُعادةً قديمة».

إنّ المونولوج الداخلي عند نجيب محفوظ محاولة للتصدي للأسئلة الوجودية التي لا يمكن الإجابة عنها. فالمونولوج الداخلي ملاذٌ وحيدٌ يمكّنُ محفوظاً من فهم ذاته فهماً عميقاً. وفي هذا المستوى تتكشّفُ أبعاد شخصية محفوظ الغنوصية حيث تصبح الذات مصدر المعرفة الوحيد الذي يمكن الوثوق به.

ميتات نجيب محفوظ

لا يتوقف حضور الموت عند هذا الحد بل إنّ محفوظاً يحرص على أنْ يكون له مدفنٌ في مدينة القاهرة المترامية ليس هذا فحسب بل إنّه قام بتجميل القبر وتزيينه وهنا تتجلى قوة التخييل عند نجيب محفوظ؛ في قدرته على إعادة إنتاج الصور وإكسابها معاني جديدة. ففي نص «القبر الذهبي» يرى محفوظ في منامه «قبراً ذهبياً قائماً تحت أغصان شجرة سامقة مغطاة بالبلابل الشادية.

وعلى صدره نُقشت بأحرف جميلة واضحة كلمات تقول: هنيئاً لمَن كانتْ نشأته في بوتقة الهجران».

لقد كان محفوظ يقوم بتمرين نفسه على مواجهة الموت والإحساس به والتعايش معه، وهنا يحضر الموت مصحوباً برؤية صوفية عبر جدل وصراع وتشبث بالدنيا. يقول محفوظ: «وهمت حيناً في وادي الفروض والاحتمالات، ولكني أثنيت على الدنيا التي لا ينضبُ فيها معينُ الحب». إنّ رحلة محفوظ لعالم الموت لا تختلف عن رحلة فريد الدين العطار النيسابوري صاحب «منطق الطير» الذي كان عليه مكابدة الأهوال والأودية الشاهقة للوصول إلى الفناء وتحقيق العشق الإلهي.

أمكنة نجيب محفوظ

وتحضرُ الأمكنة القديمة لتفتح ذاكرة محفوظ على أشواقه ولحظات الامتلاء التي عاشها حيث الحب والصبا والدفق الروحي والجموح والاندفاع. بيد أنّ مواجهة هذه الأمكنة كانت تخلّفُ في نفس محفوظ أسىً بالغاً فكثيراً ما كان يزور أحد هذه الأمكنة ليكتشف أنها تغيرت وتحوّلت وامحت فالزمن فعل فعله في الأمكنة الأمر الذي يفاقم إحساس محفوظ بالفقد والغياب ويجعله في مواجهة حقيقية مع الأجل.

وإذا ما حاول محفوظ معاينة الأمكنة القديمة فمن أجل أنْ يواجه ذاكرته ويفتحها على مكامن توهّجها، وحتى يوقظ أحاسيسه الهاجعة. يقول محفوظ في نص «سؤال بعد ثلاثين عاما» : «بعد انقطاع عشرين عاماً عن حي الشباب دعتني مناسبة إلى عبوره. لولا ما جاش في صدري من عواطف دائمة ما عرفته في عمائره الجديدة وزحامه الصاخب. وثبتت عيناي على بيت قديم بقي على حاله فشعرت بابتسامة ترفّ على الرّوح والجسد».

نساء نجيب محفوظ

تحضر المرأة الحبيبة في أصداء نجيب محفوظ حضوراً قليلاً لكنه حضورٌ كثيفٌ من حيثُ دلالاته الرمزية، إذ انّ محفوظاً لا يصرّحُ بأسماء نسائه ولا يُدلي بشهادات كاملة عنهنّ. فمرة يلقى محبوبته على مدخل ضيق لبيت قديم في ليلة شتائية حيث انهمارُ ماء المطر وهزيم الرعد. ومرة تحضر بوصفها ذكرى قديمة تبعثُ في الروح ماء الحياة والدفء والنشوة والإثارة. ليس هذ فحسب بل إنّ محفوظاً يؤمنُ بأنّ المرأة «وعدٌ منشود».

واقتران المرأة بالماء يتضمّن دلالة الجنس والحياة؛ فالمرأة هي مجال اختبار الحياة عند محفوظ حيث تبرز رغبته في التشبث والتمسك بها. وهو يصف لقاءه بالمرأة وكيف أنها كانت تأتيه: «في غمار شيخوخة وعزلة وأفكار يقطرُ منها ماء الورد».

وفي نصّ «الغوص في الماء» يصوّرُ محفوظ قدرة المرأة على شفائه من التعاسة التي لم يُفلح الأطباء في حلّها، ويلجأ محفوظ إلى فعل المخيلة وتجريد «الأنا» وجعلها آخر هرباً من الرقابة. يقول محفوظ: «نُصحَ بالهجرة إلى مكان ناء لتغيير المنظر والمُخبر. ذهب يائساً يتجوّلُ على شاطئ البحر. وعلى بعد رأى شمسيةً تستكينُ فيه امرأةٌ شبه عارية غاية في الجمال والسكينة. انجذب نحوها كأوّل شيء يلقاه فلا يبعثُ في نفسه الكآبة والوحشة، وشعر بأنها ترحّبُ به دون كلمة أو حركة فاستخفّه الطرب. وقامت نحوه متوجهة نحو الماء فتجرّد من ثيابه وتبعها. وخاضا في الماء معا دون أنْ يلقيا على ما وراءهما نظرة واحدة». فالمرأة، في أصداء سيرة محفوظ الذاتية، هي الماء الذي يبعث الحياة في الجسد، هي الروح التي إذا ما فارقته استحال جسداً هامداً لا حراك فيه.

لم يكتب نجيب محفوظ سيرته الذاتية لأنّ ذاته كانت متماهيةً مع شخصيات أعماله الروائية ومتّقاطعةً مع همومها وتطلّعاتها الأمر الذي أعطاه القدرة على الإفلات من قوى الرقابة التي تربّصت به. أما أصداء السيرة الذاتية فهي مرثاة سردية استعاد فيها محفوظ مشاهد حياته البارزة دونما الخوض في التفصيلات التي تفسد الأحلام وتعبث بها.

* شاعر وباحث أكاديمي من الأردن

بالتعاون مع بيت الشعر الفلسطيني:

جامعة «النجاح» تنظم حفلاً لتكريم الشاعر عبد اللطيف عقل وندوة في رام الله للأصوات الجديدة

نابلس ـ «القدس العربي»:

ضمن فعاليات أسبوع عبد اللطيف عقل للثقافة الفلسطينية الذي ينظمه بيت الشعر الفلسطيني في بيرزيت، نظمت كلية الآداب في جامعة النجاح، بالتعاون مع بيت الشعر الفلسطيني، في نابلس، أمس، حفلاً لمناسبة تكريم الشاعر عبد اللطيف عقل في الذكرى الثالثة عشرة لرحيله.

وشارك في الحفل الذي أقيم في قاعة المؤتمرات في مكتبة جامعة النجاح، الدكتور خليل عودة، عميد كلية الآداب، والدكتور يحيى جبر، رئيس قسم اللغة العربية، والشاعر والكاتب محمد حلمي الريشة، من بيت الشعر الفلسطيني، والدكتور عادل الأسطة، المحاضر في قسم اللغة العربية بالجامعة، والشاعر والكاتب لطفي زغلول، وصادق عنبتاوي، من مكتبة الجامعة، ومعاذ اشتية، أحد معدي الدراسات عن عقل، والدكتور عبد الخالق عيسى الذي أدار الحفل، وذلك بحضور حشد من الطلبة والمهتمين.

وأشار عودة، إلى حرص الجامعة ورئيسها الدكتور رامي الحمدلله، على تكريم المبدعين الفلسطينيين خاصة الشاعر الفلسطيني عبد اللطيف عقل الذي عمل في الجامعة.

وأكد أنه رغم رحيل الشاعر جسديا إلا أن فكره وقصائده ما زالت حية في القلوب والعقول.

بدوره استعرض عنبتاوي، صداقته بعقل، وتطورها لتصبح صداقة عائلية، مشيرا إلى اهتمام الشاعر الراحل بالكيمياء، وأكد أن عقل كان يعرض عليه أعماله الجديدة خلال الزيارات واللقاءات التي كانت تتم بينهما، موضحاً أنها كانت تشتمل على بحث ومناقشة كل الأفكار والقضايا التي من شأنها خدمة وتطوير المجتمع فكريا وثقافياً.

وقال: تدارسنا فكرة إنشاء صحيفة يومية تعنى بنقل الأخبار بطريقة غير تقليدية، وأضاف حاولنا المضي قدماً في ذلك لكننا منعنا من مواصلة المشوار من قبل الاحتلال . ونوه إلى الجهود التي بذلها عقل في تجهيز وكتابة مسرحية "البلاد طلبت أهلها" بينما كان يتواجد في العاصمة الأردنية عمان، مشيرا إلى معارضته لعرضها خشية عليه من الأنظمة العربية، لافتا إلى إصراره على عرضها، حيث تم ذلك على خشبة أحد المسارح الأردنية.

وأشار إلى أنهما تباحثا حول فكرة إنشاء مؤسسة تلفزيونية لتخليد التاريخ الفلسطيني، وناقشا خلالها آلية النهج والكيفية التي ستسير عليها، وكان ذلك ليلة وفاته، مؤكدا أن خبر وفاته كان كالصاعقة بالنسبة له.

من جهته، أكد الشاعر محمد الريشة في كلمته (بيت الشعر) معرفته بالشاعر الراحل منذ كان مدرسا في مدرسة الصلاحية بالمدينة، منوها إلى مشكلة نسيان المبدعين والمثقفين من قبل المؤسسات التي عملوا بها، مشيرا إلى ضرورة تكريمهم والاهتمام بهم وبإبداعاتهم.

وأشار إلى تقصير المؤسسات الثقافية والجهات التعليمة في إحياء ذرى عبد اللطيف عقل الذي قدم الكثير، مبينا أن الشاعر الراحل والعاشق والمفكر يستحق مزيداً من الاهتمام ودعا إلى ضرورة إعادة طباعة أعماله، وتسمية إحدى قاعات النجاح باسمه، مشدداً على أهمية إدراج بعض إبداعاته ضمن المناهج الدراسية والتعليمة في الجامعات والمعاهد والمدارس وطالب بإحياء ذكرى وفاته بشكل سنوي، داعياً المفكرين والمختصين إلى دراسة أعماله الإبداعية.

من ناحيته، أكد جبر، أن الشاعر عبد اللطيف عقل كان فلاحاً مثقفا حرا، موضحاً أنه مات وقد دق آخر مسمار في نعش القضية الفلسطينية.

وأشار إلى الظروف التي تزامنت مع وفاته، موضحاً موته في الفترة التي ماتت فيها الأمة العربية التي عول عليها كثيراً، مؤكداً أنه كان يلعن المتنازلين والمتخاذلين.

وقال كنت أعتقد أن الغموض يكتنفه وعندما تعرفت إليه بدا غير ذلك، موضحاً اشتراكهما سوية في إعداد بحث عن الأطفال نشر في مجلة صامد.

وأكد نجاح مسرحياته التي عرضت في عمان، حيث أحدثت ضجة كبيرة أدت إلى قيام الأجهزة الأمنية بمحاصرة المناطق التي كانت تعرض فيها خشية من تداعياتها.

وأشار زغلول، إلى أن الموت اختطف الشاعر عقل فجأة ، حيث موضحا حنينه المستمر لدواوينه التي أهداه إياها عبد اللطيف عقل بنفسه.

وأكد أنه نظم قصيدةً كان هناً لعبدي اللطيف وهما والده، وعبد اللطيف عقل.

وقال جمعتنا الصداقة بعقل بينما كنا نمارس مهنة التدريس في مدارس نابلس، مؤكدا أنه كان فيلسوفاً، وناقدا، ومفكرا، وواعيا، وفلسطينيا قبل أي شي آخر.

وأشار إلى اشتراكهما سوية في عدد من الأمسيات الشعرية، منوها إلى قصائده الناقدة والثورية واللاذعة، مشيراً إلى أنه كان ناقماً على الذين خانوا القضية.

وأشار الأسطة، إلى الشاعر الراحل وتجربته مع المدينة، كونه موضوعاً لافتاً للنظر حيث قدم فيه العديد من الدراسات من قبل الباحثين والمختصين.

وأوضح أن عدداً من الشعراء كتبوا قصائد رثاء في المدن الأندلسية التي سقطت من أيدي المسلمين، موضحاً أن بعض الشعراء كشاكر السياب وأحمد حجازي تناولوا في قصائدهم علاقتهم ببغداد والقاهرة.

ولفت إلى أن التوجه للكتابة عن المدينة كان موضوعاً جديداً في الشعر العربي ومختلفاً عن رثاء المدن، مشيراً إلى بعض المدن التي تأثر بها عقل كالقدس، ونابلس، وعمان، ودمشق، وبغداد.

وبين أنه كان فيلسوفاً، وتأثر سلبياً بالمدينة خاصة في ظل وجوده بنابلس، كونها كانت تهتم بالتجارة أكثر من العلم والثقافة، ما حدا به إلى هجائها.

وأكد أنه كتب عن أهلها رغم ذلك، مبينا أنه قدم استقالته من الجامعة وأتجه إلى مدينة رام الله التي كانت تعتني بالثقافة بشكل أكبر من نابلس، وقام بفتح مسرح للثقافة، تعرض للحرق، ماساهم في توتر علاقته مع المدينة.

من جهته، أكد عيسى، أن الصورة التي رسمها عقل في قصائده كانت قريبة من الكاريكاتورية، حيث كانت تتخذ طابع السخرية.

وأوضح أن أبياته تضم انقلاباً في واقع الأشياء، إضافة إلى احتوائها على تناقضات عدة، منوها بأن يعكس صورة عجز الواقع العربي.

وأشار إلى أنه وازي في قصائده بين أسلوبين هما الأسلوب المباشر، والأسلوب المغلف.

وأكد اشتية، كتابته لرسالة الماجستير عن عقل، حيث تتبع كسيرته الأدبية، موضحاً إجازتها له من جامعة النجاح وأشار إلى أن شخصية عقل عاشت بالوطن ومعه وتجرعت الحرمان كما أنه عاش الواقع بنفسه.

وقال إنه رسم صورة صادقة لطفولته المشردة والطفولة الفلسطينية بشكل عامل وعاني الغربة وانتظر الخلاص منها طويلا.

وفي المساء في رام الله وبالتعاون مع مركز بيت المقدس تم إنجاح ندوة الأصوات الجديدة : أجندة بديلة .. وقد تحدث في الندوة الطالبة رشا أبو شريف من جامعة بيرزيت والطالبة أماني صيام من جامعة القدس والشاعر الطالب أحمد دغلس .. الذين تحدثوا عن هواجسهم عن المشهد الثقافي الفلسطيني وضرورة الالتفات إلى إبداع الشباب والاهتمام بنتاجهم وإيلائهم الأهمية الكافية لتقديم منجزهم الإبداعي.

وتحدثوا عن ضرورة كذلك إيجاد المنابر للأصوات الجديدة لسدّ الفراغ الذي يحاول ابتلاع المشهد الثقافي في فلسطين نظراً لحالة الغياب لعدد من الرموز الثقافية .. وقد أدار الندوة الشاعر والكاتب عبد السلام العطاري .. وتحدث في الندوة الشاعر يوسف المحمود عن تجربته مع عبد اللطيف عقل ودور عبد اللطيف عقل في الإنجاز المعرفي كما تحدث المسرحي يعقوب إسماعيل عن تجربة عبد اللطيف المسرحية.

عبد اللطيف عقل: ثقافة اليتم أم يتم الثقافة؟

عبد الرحيم الشيخ*

■ البلادُ تطلبُ أهلها كلّما طال الغيابُ وقلّما طال الغيابْ

والأفضلونَ، الشهداء، يمضونَ في الغياب بلا أهل تاركين البلادَ على حالها ليزداد أيتامُها واحداً أو يقلّوا والأيتامُ يحترفون ذكرَ الرعد، والتأليفَ، والموتَ المبكّرَ، والولادات البطيئة للحقيقةْ.

البلادُ تطلب أهلَها، فيطلبُ أهلُها الذكرى وتطلبُهم، ويقول عقل:

«هزيم الرعد يعمق من وحدتي ويختصر أبعاد الحزن في مجرى الدموع. يرتبط الرعد ولا يزال باليتم ..يقول الرعدُ للطفل المؤلّف: أنت يتيم جداً أيها الصغير، جداً، كحبة زيتون ضعيفة. يتيم تماماً.. قالت لي أمي بعد ربع قرن من طفولتي: أبي مات في الشتاء، تذكرتْ ذلك لأن دموعها، ساعتئذ، ارتبطت بجثة أبي في مستشفى يافا حين سقط على الملاءة البيضاء، وصدر أبي الذي كف عن العمل، وعلى صدر ثوبها المبلل بماء المطر لأنها، حين فقدَ قدرتَهُ على التنفس، كانتَ تنتظر في عراء البحر. وقالت أمي، أيضاً، إنها تذكر بوضوح أنهم تركوها عند صاحب دكان الحبوب في حي العجمي بيافا، وذهبوا يبحثون عن أناس لا تذكرهم، تركوها وكأنها ليست زماناً وطقساً، ويعود إليه احتفالاً أسياناً. الشتاء يتدفق مطرهُ كالميازيب في أزقة روحي وقريتي. تسقط دموع أمي في قلبي، وفيما بعد، وحتى ما بعد الآن، صار كل بكاء لا يمكن أن يكون بكاءً إلا إذا تدفق من محاجر أُمّ. وحين أرى اليتامى أو أتذكرهم أسمعُ هزيمَ الرعد في رأسي وقلبي وأرسم صورة المخيمات، وكأن الرعد رسالةٌ سماويةٌ أن اليتامى وحدَهم في توحدِّهم..».

اليتامى وحدهم، كانوا، وما زالوا. واليتمُ على حاله .. واللؤمُ على حاله، واللئامُ على حالهم. لكن عبد اللطيف عقل عاشَ يتيماً، ومات يتيماً، ونبعثُ اليومَ ذكرهُ ولا يزالُ يتيماً. فطوبى لأيتام الثقافة، وطوبى لثقافة اليتم إذ تجنّب أبناءها خطيئة القتل ـ الضروري ـ المغفرة لآبائهم إن توثّنوا. ولُدَ عبد اللطيف عقل يتيماً، ومات يتيماً، كما الثقافةُ التي لم تذكره قبل اليوم: يتيمةٌ هي أيضاً، لكنّها لا تبرّ بأيتامها. يتيمةٌ الثقافةُ الفلسطينيةُ من أمها الأرضِ التي تكتبُ فيها الحكايةَ وعنها وعليها، ويتيمةٌ من أبيها، بالدم: عمقها العربي، وآباؤها، بالتبنّي، يطردون أيتامها عن موائدهم، ويسممون نبعَ الله المشاعَ لئلا يشربَ الأيتامُ منه!

نحزن لليتم، ونفرح باليتامى الذين يطردون مقولة اليتم عن أرواحهم بدلَ أن يطردهم اللئامُ عن فُتات الموائد. نحزن في الذكرى الثالثة عشرة لغياب عبد اللطيف عقل، ونفرح ونحن نطرد ذاكرة الرقم المشؤوم بإحياء ذكراه كما ينبغي، للمرة الأولى. نحزن ونحن نقول: من لم يقصّر في حق عبد اللطيف عقل فليرفع إصبعه، ونفرح ونحن نرى «بيتَ الشعر» يرفع إصبعه عالياً: أسبوع عبد اللطيف عقل للثقافة الفلسطينية (10 ـ 14 أيلول ـ سبتمبر 2006 جنين ـ نابلس ـ بيرزيت ـ